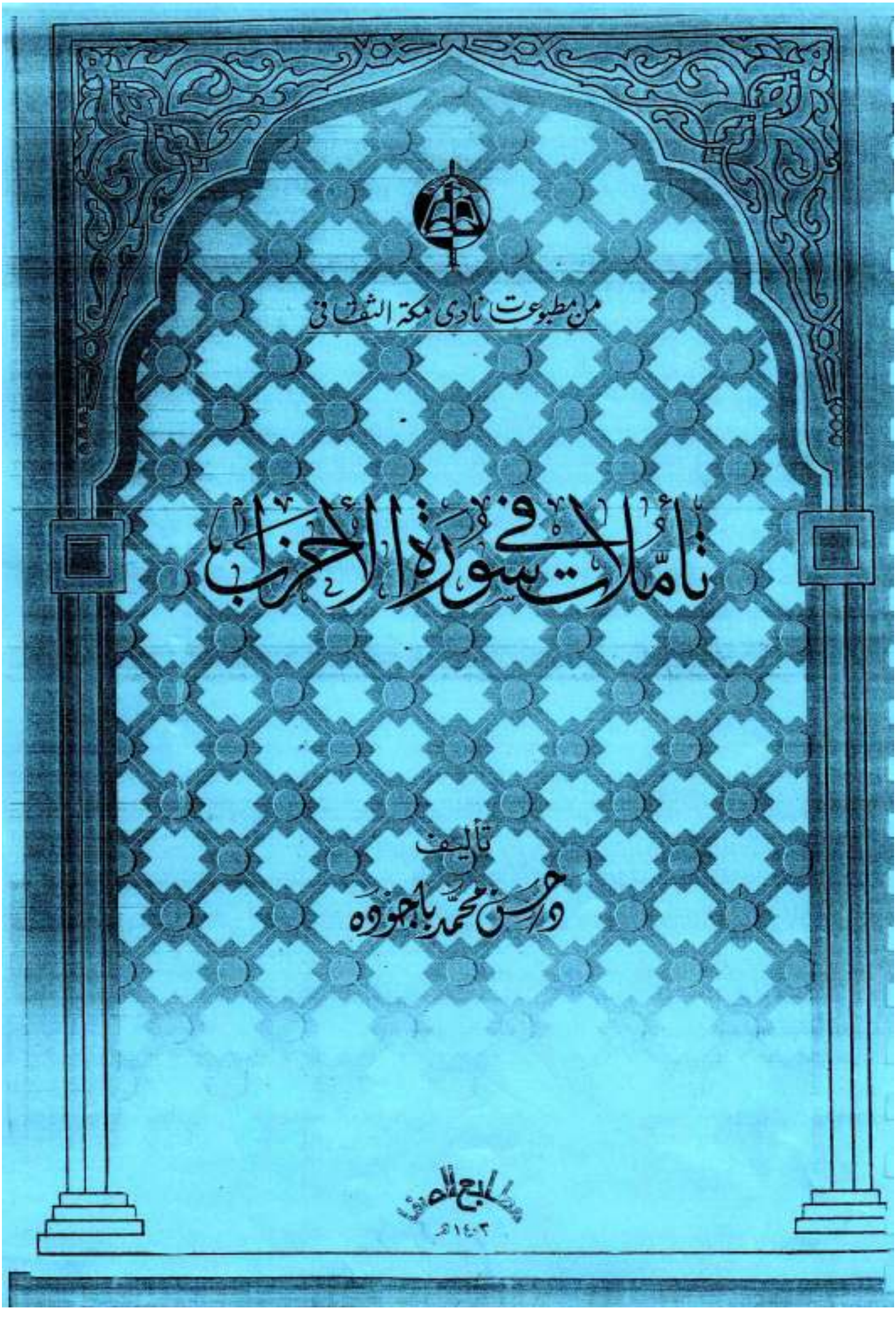

من مطبوعات نادي مكة الثقافي

تأملات في سورة الأحزاب

تأليف
د. حسن محمد باجوده

مطابع الصفا
١٤٠٣هـ

من مطبوعات نادي مكة الثقافي

تأملات في سورة الأحزاب

تأليف محمد
دكتور حسن باجودة

مطابع الصفا
١٤٠٣هـ

بقلم

د/ حسـن محمد باجـوده

أستاذ الدراسـات القرآنية البيـانيـة

جامعة أم القـرى

بمكة المكرمة

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسلام على أشرف المرسلين سيّدنا محمدّ وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

بَعوْنٍ من الله تعالى وتوفيق ، سبق لنا أن قمنا بدراسات متأمّلة للسّور التّالية على التّوالى : سورة يوسف . سورة مريم . سورة يس . سورة الإسراء . سورة الفرقان . سورة العاديات . سورة النّازعات . سورة الحاقّة . سورة الرّعد . سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام . سورة الفاتحة . وكلّ هذه السّور ، باستثناء سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام من المكّي من القرآن الّذى نزل قبل الهجرة . أمّا سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام فإنّها من المدنىّ من القرآن الّذى نزل بعد الهجرة . كما أنّ كلّ هذه الدّراسات ، بفضل الله تعالى ، قد تمّ طبعها . ومنها ما طبع حتّى الآن أكثر من خمس مرّات . وهانحن أولاء نستعين الله تعالى على دراسة سورة أخرى مدنيّة هي سورة الأحزاب التى تتكوّن من ثلاث وسبعين آية ، والّتى ارتبطت بأحداث جرت فى المجتمع المدنىّ بقيادة المصطفى ﷺ فى حدود السّنة الخامسة من الهجرة ، أى بعد أن قطع هذا المجتمع المثالىّ خمس سنوات . فالمعروف أن المجتمع الإسلامىّ وجد حقيقة فى المدنية المنوّرة بعد هجرة المصطفى ﷺ وإن كانت له جذور قبل الهجرة . والمعروف أنّ المصطفى ﷺ هو النّبىّ الوحيد الّذى ارتبطت دولته بدعوته . فبوصوله ﷺ إلى المدينة المنوّرة مهاجراً تأسّست دولة الإسلام الأولى ، وكانت المدينة المنوّرة العاصمة ، وحدودها زهاء ثمانية كيلو مترات مربّعة ، هي كلّ حدود الدّولة الفتيّة . وقبل أن يتوفّى ﷺ وقد عاش بعد الهجرة عشر سنوات ، كانت حدود الدّولة الإسلامية قد تخطّت كثيراً المليون الواحد من الكيلو مترات المربّعة .

ومن الطّبيعىّ أن يمرّ مجتمع المدينة المنوّرة بالمراحل الّتى يمرّ بها أىّ مجمتع يأخذ حثيثاً بأسباب النمو والازدهار . ومن الطّبيعىّ وراء ذلك أن يكون لهذا المجتمع من

الظّروف والملابسات ما يختصّ به دون سائر المجتمعات . لأنّه مجتمع حركيّ متوثّب . وقد عرفنا بعض مظاهر نشاطه فى اتّساع حدود دولته ، ممّا يعنى الاحتكاك الحتميّ بالأطراف الأخرى ، فكيف إذا كان المصطفى ﷺ ، رئيس الدّولة ، مطارداً وقتاً من الأوقات من قبل كفّار مكّة ، الّذين كانوا يمثّلون قمّة الطّغيان والجبروت فى كلّ جزيرة العرب . وقد كان كفّار مكّة قادرين على أن يقولوا ما يشاءون بالحقّ وبالباطل . كما كانوا يعتقدون أنّهم قادرون على أن يفعلوا أشياء وأشياء . ومثل هذا الاعتقاد يرتبط به من قبل المناوئين للدّعوة إلى صراط العزيز الحميد إعلان الكفر صراحة ، أى الموافقة بين ما يظهرون وما يعتقدون ، ولا يرتبط به النّفاق الّذى يظهر عادةً حينما يكون ثمّة اعتقاد راسخ بالانهزام والعجز عن القول والفعل ، كليهما معاً أو أحدهما . ولهذا ظهر النّفاق فى المدينة المنوّرة بعد الهجرة . وهذا أمرٌ طبيعىّ . ونتيجةٌ منطقيّة . وليس فى مكّة المكرّمة الّتى كان ظهور الكفر فيها أمراً طبيعيّاً ونتيجة منطقيّة .

وبما أنّ التّعاون بين العناصر المناوئة للدّعوة إلى صراط العزيز الحميد على الإثم والعدوان أمرٌ طبيعىّ ، وبما أن الفئات المناوئة لهذه الدّعوة ، هم الحلفاء الثّلاثة على الكفر والطّغيان ، وهم المشركون ، ويعتبر كفّار مكّة رمزهم والمنافقون ، ومِنْ أهل المدينة من مرد عليه ، واليهود . وبما أنّ حرب هذه الفئات الثّلاث للإسلام عوان ، ومِنْ أوضح الأمور بل أوضحها تحالف هذا الثّالوث الماكر ضدّ المسلمين فى غزوة الأحزاب ، وقد سمّيت سورة الأحزاب باسمهم ، وهى الّتى تحدّثت عن هذه الغزوة ، فقد كان من الطّبيعىّ أن يكون الحديث متنوّعاً ومستفيضا ، خاصّة وأنّ الهدف الحقيقىّ هو تربية هذا المجتمع الإسلامىّ وتهيئته لمواجهة كلّ تحدّيات الحياة ، والّتى تجلّت بفضل الله تعالى ثمارها فى كون دولة الإسلام قد امتدّت دون انقطاع بعد وفاة المصطفى ﷺ بمائة عام تقريباً من حدود الصّين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً .

وبما أنّ بيت النّبىّ ﷺ هو البيت النّموذجىّ لكلّ بيوت المسلمين الّتى يتكون منها المجتمع المسلم فالأمّة المسلمة ، فقد كانت عناية السّورة الكريمة كبيرة ببيوت النّبىّ ﷺ وبآل البيت الّذين نصّت السّورة الكريمة على أنّه جلّ وعلا أراد أن يذهب عنهم الرّجس ويطهّرهم تطهيرا – قال تعالى : ﴿ **إنّما يريد الله ليذهب عنكم**

الرّجس أهل البيت ويطهرّكم تطهيرا ﴾ ومن هنا كانت عناية السّورة الكريمة البالغة بأزواج النّبيّ ﷺ ، باعتبارهنّ أمّهات للمؤمنين ، والأسوة الحسنة للمؤمنات ، وبنظافة المجتمع الإسلامى وطهره عموماً فى المدينة المنوّرة ، فكانت الإرشادات والتّوجيهات لأزواج المصطفى ﷺ وللمؤمنين والمؤمنات ، فى العديد من المسائل كالحجاب و آداب الزّيارة والاستئذان وإدناء الجلابيب كما كان فى المقابل التّهديد العنيف للمنافقين والّذين فى قلوبهم مرض ، والمرجفين فى المدينة ، بأنّهم إن لم ينتهوا عماّ يفعلون ويقولون ، ليسلطّن الله تعالى عليهم رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، بأن يقاتلهم ويقتلهم ويجلى من بقى منهم على نفاقة عن المدينة المنوّرة . وكلّ ذلك معناه الطّرد من رحمة الله تعالى .

ويبدو أنّ المنافقين قد استفادوا من هذه الدّروس القرآنية ، ومن إمهال الله تعالى لهم ، فقد خفت صوت النّفاق بعد غزوة الأحزاب وغزوة بنى قريظة . ومعروفٌ أنّ ربّ العزّة نصر فى غزوة الأحزاب عبده وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده . كما أنّ بنى قريظة الغادرين قد نالوا جزاء غدرهم : **﴿ فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاوأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديراً ﴾** .

وإذا كانت عناية السّورة الكريمة ببيوت النّبيّ ﷺ كبيرة ، فإنّ عنايتها بشخص الرّسول الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه كبيرة كذلك . ويكفى أن يقال فى هذا الصّدد : إنّ هذه السّورة الكريمة تضمّنت فى آيتها الكريمة الحادية والعشرين النّصّ الصّريح على كون المصطفى ﷺ هو الأسوة الحسنة . قال تعالى : **﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾** ومع أنّه ﷺ هو الأسوة الحسنة للمسلمين فى كلّ صغيرة وكبيرة ، لأن سيرة المصطفى ﷺ . بسبب حفظ الله تعالى لكتابه العزيز ، وتسخير جيش من العلماء لخدمة سنّته ﷺ ، هى السّيرة الوحيدة فى الدّنيا الكاملة العلميّة العمليّة التّأريخيّة ، بحيث إنّ كلّ شخص سليم الطّويّة ، راجح العقل ، نقىّ الصّدر ، صافى النّفس ، يستطيع دائماً وأبداً أن يتّخذ من المصطفى ﷺ أسوته الحسنة ، فإنّه يبدو – والله تعالى أعلم – أنّ ثمّة صفة بعينها ، كأنّ السّورة الكريمة أرادت أن تشدّ انتباه المسلمين إليها ، كى يرعوها حقّ رعايتها ويعطوها حقّ قدرها ، ويعضّوا عليها

بالنّواجذ ، فى مجال تأسّيهم بالمصطفى ﷺ فإنّ فيها خيرى الدّنيا والآخرة ، أمّا هذه الصّفة بالذّات فهى صفة الجهاد فى سبيل الله تعالى . فالمعروف عنه ﷺ أنّه إمام المجاهدين وبطل الأبطال . ويبدو من تأمّل الآيات الكريمة الّتى تحدّثت عن غزوتى الأحزاب وبنى قريظة ، ابتداء من الآية الكريمة التّاسعة ، وحتّى الآية الكريمة السّابعة والعشرين ، والتى جاءت فى أثنائها آية اتّخاذه ﷺ أسوةً حسنة ، يبدو ﷺ هو الأسوة الحسنة فى كلّ مجالات الحياة وبخاصّة فى مجال الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وبخاصّة فى غزوة الأحزاب الّتى تعتبر أشقّ الغزوات على المصطفى ﷺ وعلى المؤمنين المتّقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى . لقد جاء عن المؤمنين قوله تعالى : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها. وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً** ﴾ . وإذ كان هذا هو حال المؤمنين تجاه ذلك الظّرف العصيب الّذى يمرون به ، بينما فرّ المنافقون من الميدان ، وأغروا الآخرين بالجبن حذوهم ، وكان من بعضهم جراءة على الله ورسوله ، فإنّ المصطفى ﷺ هو دائماً وأبداً الأسوة الحسنة وبخاصّة فى مجال الجهاد فى سبيل الله تعالى . قال عزّ من قائل : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾ وقد تسنى لفريق من المؤمنين المتّقين المجاهدين فى سبيل الله تعالى حقّ الجهاد ، ومنهم من أكرمه الله تعالى بالشّهادة ومنهم من ينتظر، أن يوفّقوا فى حدود الطاقة البشرية فى التأسّى به ﷺ فى هذه الصّفة بالذّات صفة الجهاد فى سبيل الله تعالى . وقد تحدّثت عن هذا الفريق الآيات الكريمات الثلاث الّتاليات مباشرة ، الثانية والعشرون والثالثة والعشرون والرّابعة والعشرون قال تعالى : ﴿ **ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلاّ إيماناً وتسليما . من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا . ليجزى الله الصّادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً** ﴾ وبما أنه ﷺ هو الأسوة الحسنة ، فقد كان حديث السّورة الكريمة عنه ﷺ مستفيضا ، فقد أمر الله تعالى عباده أن يصلوا عليه صلى الله عليه وسلّم ويسلّموا

تسليما . قال تعالى : ﴿ **إنّ الله وملائكته يصلّون على النّبىّ . يا أيها الّذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما** ﴾ وكان الخطاب الخاصّ به فى القرآن الكريم دون سائر الأنبياء والمرسلين يا أيها النّبىّ الّذى ابتدأت به السّورة الكريمة وجاء فى أثناء السّورة الكريمة مرّات عدّة . وكان الحديث عنه ﷺ ضمن أولى العزم من الرّسل الخمسة لابل تقديمه فى الذّكر عليهم.ومِنْ أهمَ صفاتهم كما نصّت على ذلك الآية الكريمة الأخيرة من سور الأحقاف صفة الصّبر . جاء فى سورة الأحزاب فى تقديمه ﷺ على أولى العزم من الرّسل قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النّبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا . ليسأل الصّادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذابا أليما** ﴾ إنّ هؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرّسل الّذين يضرب بهم المثل فى الصّبر . وإنّ محمد بن عبد الله ﷺ إمامهم وزعيمهم . وبهذا يتبين عناية السّورة الكريمة الكبيرة به ﷺ باعتباره الأسوة الحسنة ، وبالفرد المسلم ذكراً كان أو أنثى ابتداء بآل بيته الطّيبين الطّاهرين ، وبالبيت المسلم ممّثلاً فى بيت النّبى ﷺ أو بيوته ، وبالمجتمع المسلم ممثلاً فى مجتمع المدينة المنوّرة ، ذلك المجتمع الّذى ينبغى أن يسوده الوئام والطّهر والعمل الجادّ النّافع ، وبالدّولة الإسلاميّة الّتى هزم الله تعالى وحده أعداءها بأن ردّ جلّ وعلا الّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال ، وسلط الله تعالى رجال هذه الدّولة الفتية المؤمنين على يهود بنى قريظة الخائنين الناقضين للعهود والمواثيق ﴿ **فريقاً تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها وكان الله على كلّ شىء قديراً** ﴾ وكاد جلّ وعلا يسلّطهم على المنافقين من سكّان المدينة المنوّرة .

وإنّ دراستنا لسورة الأحزاب الكريمة عنيت كالعادة بمجموعة من الأمور :

١ – مظاهر إعجاز السّورة الكريمة أسلوبيّا . ولهذا كانت عنايتنا كبيرة بالجانب اللّغوى .

٢ – الدّروس الّتى أمكن استفادتها من السّورة الكريمة .

٣ – الأحكام الّتى أشارت إليها السّورة الكريمة وهى كثيرة ، كالتبنى والحجاب وطلاق غير الممسوسة . وكان دورنا بشأن هذه الأحكام هو مجرّد الاقتباس من

النّصوص الموثوقة وخاصّة تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن .

وإذا كنّا فى دراستنا المتأمّلة السّابقة لسورة الفاتحة الكريمة قد قرّرنا بأنّ اختيار سورة الفاتحة ميداناً للدراسة استجابة لرغبتين الأولى : الإحساس بأنّ المنهج الأمثل لهذه التّأمّلات أن تبدأ من أوّل المصحف الشّريف وأن تتناول السّور بالترتيب .. والثانية الرغبة الصّادقة المخلصة من فريق من الإخوان الأفاضل فى أن تبدأ هذه الدّراسات المتأمّلة بسورة الفاتحة الكريمة وأن تراعى مستقبلاً ترتيب السّور الكريمة فقد أردفنا تعقيباً على الرّغبة الأولى : والله تعالى وحده هو الّذى يعلم خطّ سير هذه التّأمّلات مستقبلا . فنحن مثلاً نتبيّن هذه الأيّام أنّا بحاجة لأن نعالج قضايا بعينها ترتبط بهذه السّورة الكريمة أو تلك . وتكون تلك المعالجة أحد الدّوافع لدراسة تلك السّورة الّتى قد لا تكون فى الترتيب السّورة الّتى ينبغى دراستها فيما لو سارت الدّراسة وفق التّرتيب التوقيفىّ لسور المصحف الشّريف ، إنّ هذاهو ما حصل بشأن دراسة سورة الأحزاب الكريمة . فقد شاءت إرادة الله تعالى أن أمثّل وزارة الإعلام بالمملكة العربية السّعودية فى المؤتمر العالمىّ الثّالث للسّيرة والسنّة النّبويّة الّذى عقد بمدينة الدّوحة بقطر فى شهر محرّم عام ١٤٠٠ هـ وكان عنوان أحد الموضوعات المطروحة للبحث غدر بنى قريظة ومعاملة النّبىّ ﷺ لقد اخترت هذا العنوان وعملت البحث من أجل ذلك المؤتمر وكان نواة لهذه الدّراسة المتأمّلة لسورة الأحزاب باعتبار هذه السّورة الكريمة هى الّتى تحدثت عن غدر بنى قريظة ومظاهرتهم للأحزاب ومعاملة النبىّ ﷺ . ولازلنا نكرّر القول : إنّ الله تعالى وحده هو الّذى يعلم خطّ سير هذه التّأمّلات مستقبلا .

وبشأن هذه الدّراسة المتواضعة لسورة الأحزاب الكريمة . وعنوانها تأمّلات فى سورة الأحزاب ، أكرّر ما قلت بشأن كلّ دراساتى القرآنية البيانية السّابقة ، بأنى أشهد الله تعالى الّذى لا إله إلاّ هو بأنى لم أشأ لحظة من اللّحظات أن أحمّل حرفاً واحداً من القرآن الكريم فوق ما يحتمل . ومن كان له على هذه الدراسة وكلّ دراسة ، أىّ ملاحظة فلا يتردد فى إعلانها فالحقّ أحقّ أن يتّبع .

وفى الختام أسأل الله تعالى أن يوفّقنا لصالح الأعمال وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ، وأن يتقبلها منا ، وأن يغفر لنا ما بدر منا من تقصير ، وأن ينير لنا السّبيل

ويأخذ بأيدينا إلى الصّراط المستقيم إنه على كلّ شيء قدير ﴿ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تحمل علينا إصْراً كما حملته على الّذين من قبلنا . ربّنا ولا تحمّلنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين . والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد النّبيّ الأمّيّ وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً والحمد لله ربّ العالمين .

مكّة المكرّمة

صبيحة يوم الجمعة التّاسع من شهر رمضان المبارك ١٤٠١ هـ

الموافق للعاشر من شهر يوليو ١٩٨١ م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه

د/حسن محمّد باجوده

أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة

جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ
لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ
أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ
وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ
أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ
وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ
اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ
أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ
ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ
وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا
غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم
مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ
ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟
زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ
يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ
يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾
وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا
تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ
ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم
مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم
مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ
لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ

ثلاثة أرباع الحزب

فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ
عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً
عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ
يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟
فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا
رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟
مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟
تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن
شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ
وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ

أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن
كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ
مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ
يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾
* وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ
وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ
النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ
وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ
الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾
وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ

حزب ٤٣ جزء ٢٢

وَالصَّٰبِرَٰتِ وَالْخَٰشِعِينَ وَالْخَٰشِعَٰتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَٰتِ
وَالصَّٰٓئِمِينَ وَالصَّٰٓئِمَٰتِ وَالْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَٰفِظَٰتِ وَالذَّٰكِرِينَ
ٱللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا
كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ
ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾
وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ
وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ
أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ
أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ
سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾
ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن
رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ
بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا
كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾
وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم
مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ
أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا
إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ
عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ
وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ
نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ
قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا
يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ * تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ
وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ

أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ
مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟
بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا
دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ
ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا
سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ
وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ
مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا
أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ
وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ
وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۖ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾
وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ
ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ
وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ
فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ
وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ
لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟
وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ
لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ
ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا
ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا
ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟

وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا
سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ
إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

تـوطئـة

ثمّة مجموعة من الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة وبدراستها المتأمّلة نودّ أن نضعها بين يدى الدّراسة .

(١) سورة الأحزاب مدنيّة فى قول جميع العلماء نزلت فى المنافقين وإيذائهم . رسول الله ﷺ وطعنهم فيه وفى مناكحته وغيرها . وهي ثلاث وسبعون آية .[١] كما أنّها تحدّثت عن غزوتى الأحزاب وبنى قريظة وتضمّنت العديد من الأحكام لأنّ المجتمع الإسلامىّ فى المدينة كان قد قطع شوطاً بعيداً فى مجال النّمو فهو بحاجة مستمرّة ونامية للتّشريع من أجله وهو المجتمع الإسلامى النّموذجىّ فالرّاجح أنّ غزوتى الأحزاب وبنى قريظة اللتين تحدّثت عنهما السّورة الكريمة كانتا فى السنّة الخامسة من الهجرة .

(٢) كان عمر رضى الله عنه كثيراً ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب فى الصّبح . وكان إذا بلغ : ﴿ **يا نساء النّبىّ** ﴾ رفع بها صوته فقيل له فى ذلك فقال : أذكّرهنّ العهد[٢]

(٣) جاء فى صحيح البخارى[٣] أنّ زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه فى جمعه للقرآن الكريم على عهد أبى بكر رضى الله تعالى عنه قال : لمّا نسخنا الصُّحف فى المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجدها مع أحد إلاّ مع خزيمة الأنصارىّ الّذى جعل رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين :﴿ **من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى**

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥١٩٥ وانظر الكشاف ٥٢٨/٢ وتفسير ابن كثير ٤٦٥/٣ .
(٢) تفسير القرطبى ص ٥٢٥٧ .
(٣) ١٤٦/٦ .

نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا﴾[1] والمراد أنّه رضى الله تعالى عنه لم يجدها مكتوبة إلاّ عند خزيمة هذا ، لأنّ زيدا رضى الله تعالى عنه ، كما يقول السّيوطى[2] : كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة . .

إنّ زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه قد التزم بصرامة المنهج الّذى وضعه لجمع القرآن الكريم . فمع أنّه كان أحد حفّاظ القرآن الكريم عن ظهر قلب وصاحب العرضة الأخيرة للقرآن الكريم على المصطفى ﷺ وشابّا قوى الذّاكرة أمينا غير متهم كما نعته أبو بكر رضى لله تعالى عنه فإنه لم يكن يكتفى بالحفظ وحده . ومع أنّه كان قارئاً كاتبا وأحد كتّاب الوحى للمصطفى ﷺ فإنّه لم يكن يكتفى بالكتابة وحدها . بل كان يشترط الحفظ والكتابة معاً . « وكان الناس يأتون زيد بن ثابت ، فكان لا يكتب آية إلاّ بشاهدى عدل »[3] والمراد أنّهما يشهدان على أنّ ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله ﷺ[4] وقد تسنىّ تحقّق هذا الشّرط الصّارم بشأن الشّهيدين بشأن القرآن الكريم كلّه باستثناء هذه الآية الكريمة من سورة الأحزاب ، وبشأن الآيتين الأخيرتين من سورة التّوبة ، فبسبب حفظ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم لهذه الآيات الكريمات لم تقم عندهم الحاجة لكتابتها فى صحفهم الخاصّة بهم ، تماماً كما لم يكتب عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه سورة الفاتحة فى مصحفه اكتفاءً بحفظه رضى الله تعالى عنه وحفظ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم لها عن ظهر قلب[5] وهذه هى آية سورة الأحزاب . قال تعالى : **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا﴾** وهاتان هما الآيتان الأخيرتان من سورة التّوبة . قال تعالى :**﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولّوا فقل حسبى الله لا إله إلاّ هو عليه توكّلت وهو ربّ العرش العظيم﴾**

---

(١) سورة الأحزاب ٢٣ .
(٢) الإتقان ١/٢٠٦ .
(٣) الإتقان١/٢٠٦ .
(٤) الإتقان ١/٢٠٥ .
(٥) انظر ابن كثير ١/٩ .

والمعروف أنّه ﷺ كان يأمر بكتابة ما نزل عليه من القرآن الكريم . ولكنّه كان مفرقاً فى الرّقاع والاكتاف والعُسُب وإنّما أمر الصّديق رضى الله عنه تعالى بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعا ، وكان بمنزله أوراق وُجدت فى بيت رسول الله ﷺ ، فيها القرآن الكريم منتشر . فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء[1] فالقرآن الكريم كتب كُلّه فى عهد رسول الله ﷺ لكن غير مجموع فى موضع واحد ولا مرتّب السّور[2] وإضافة إلى كون القرآن الكريم كلّه موجوداً كلّه فى بيته ﷺ مكتوبا ،كان للصّحابة رضوان الله تعالى صحفهم بل ومصاحفهم الّتى دوّنوا فيها بعض القرآن الكريم أوكلّه على عهد المصطفى ﷺ . فكلّ من شاء أن يدون شيئاً من القرآن الكريم بعد كتابة كتّاب الوحى له بين يدى رسنول الله ﷺ كان له ذلك .

ولا نملك تجاه دقة هذا المنهج العلمىّ فى جمع القرآن الكريم الّذى تمّ خلال سنة واحدة من خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه أعنى سنة اثنتى عشرة من الهجرة[3] إلاّ أن نتلو بخشوع قوله تعالى من سورة الحجر[4] : ﴿ **إنّا نحن نزلنا الذّكر وإنّا له لحافظون** ﴾ .

(٤) دراستنا المتأمّلة لسورة الأحزاب الكريمة عنيت بتبيين مظاهر إعجاز آيات السّورة الكريمة وألوان التّرابط بين مواضيعها وآياتها وأجزاء الآية الكريمة الواحدة . هذا إلى الدّروس الّتى أمكن استفادتها من السّورة الكريمة . ومن الواضح أنّ موضوعات السّورة الكريمة متعدّدة ومتنوّعة ، كما أنّها من المدنىّ من القرآن المتضمّن للأحكام . وقد حاولنا جهد الطّاقة أن نوفّى كلّ هذه الجوانب حقوقها . وفيما يتّصل بالأحكام الّتى تضمّنتها السّورة الكريمة كان دورنا مقصوراً على مجرّد الاقتباس من المصادر الموثوقة ، وفى مقدّمتها تفسير القرطبى : الجامع لأحكام القرآن . وبما أن تُعنى كذلك بمظاهر إعجاز القرآن الكريم فقد كانت عنايتنا بالنّاحية اللّغوية كبيرة . وبشأن كلّ اقتباساتنا أشرنا إلى مصادرها . فإنّ من صميم أهدافنا فى أمثال هذه الدّراسات أن

---

(١) انظر الإتقان ٢٠٧/١ .
(٢) الإتقان ٢٠٢/١ .
(٣) مباحث فى علوم القرآن ص ٧٤ .
(٤) الآية ٩ .

نجمع بين القديم والحديث . بمعنى أن نربط القارىء بتراثنا الإسلامى العريق ، بحيث تذوب الفوارق بإذن الله تعالى بين ما يسمّى بالقديم وما يسمّى بالجديد ، كي يكون المظهران وجهين لعملة واحدة يتحقق معها بإذن الله تعالى نهضة علميّة إسلامية مجيدة .

(٥) أمكن دراسة السّورة الكريمة وفق العناوين التّالية :

١ – يا أيّها النبىّ اتّق الله ويتكوّن هذا القسم من الآيات الثلاث الأول (١ – ٣) .

٢ – ادعوهم لآبائهم . ويتكوّن هذا القسم من آيتين كريمتين (٤ – ٥) .

٣ – النّبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم . ويتكوّن هذا القسم من الآيات الكريمات الثّلاث (٦ – ٨) .

٤ – اذكروا نعمة الله عليكم ويتكوّن هذا القسم من الآيات الكريمات (٩ – ١١) .

٥ – المنافقون ويتكوّن هذا القسم من الآيات الكريمات (١٢ – ٢٠) .

٦ – لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة . ويتكوّن هذا القسم من الآية الكريمة (٢١) .

٧ – من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . ويتكوّن هذا القسم من الآيات الكريمات (٢٢ – ٢٤) .

٨ – ردّ الله الّذين كفروا بغيظهم . ويتكوّن هذا القسم من الآية الكريمة (٢٥) .

٩ – انتقام الله تعالى من يهود بنى قريظة الغادرين . ويتكوّن هذا القسم من الآيتين (٢٦ – ٢٧) .

١٠ – أزواج النبىّ ﷺ . واجباتهّن وحقوقهّن . ويتكوّن هذا القسم من الآيات الكريمات (٢٨ – ٣٥) .

١١ – ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النّبيّين . ويتكوّن هذا القسم من الآيات الكريمات (٣٦ – ٤٠) .

١٢ – سراجٌ منير . ويتكوّن هذا القسم من الآيات الكريمات (٤١ – ٤٨) .

١٣ – ذلك أدنى أن تقرّ أعينهن ولا يحزنّ ويرضين بما آتينهن كلّهنّ . ويتكون هذا القسم من الآيات الكريمات (٤٩ – ٥٢) .

١٤ – الله وملائكته يصلّون على النّبىّ . ويتكوّن هذا القسم من الآيات الكريمات (٥٣ – ٦٢) .

١٥ – الكافرون ملعونون فى الدّنيا والآخرة . ويتكوّن هذا القسم من الآيات الكريمات (٦٣ – ٦٨) .

١٦ – تقوى الله ثمرة المنهج القرآنى تربويّا . ويتكوّن هذا القسم من الآيات الكريمات (٦٩ – ٧٣) .

وبما أنّ عناية السّورة الكريمة كبيرة بحجاب المرأة المسلمة وطهارة بيوت المسلمين وذهاب الرّجس بعيداً عنها ممثّلة فى آل البيت وبعيداً عن المجتمع المسلم ، وبما أنّ الحضارة الإسلاميّة تقدّم الحقيقة على كلّ اعتبار آخر ، بينما الحضارات البشريّة أو الّتى انفصمت عن تعاليم السّماء تقدّم عنصر الجمال على الحقيقة ، فقد أردفنا الدّراسة بتبيين عناية القرآن الكريم والإسلام الحنيف بالحقيقة وإعطائها حقّها وذلك تحت هذا العنوان .

١٧ – بين الحقيقة والجمال .

الدّراســـة المتـأمّلة لســـورة الأحـــزاب

الآيات الثمان الأول من سورة الأحزاب ،بين يدى حديث السّورة الكريمة ، عن ملابسات الغزوة الّتى سمّيت السّورة الكريمة باسمها ، أمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأوّل : ويتكوّن من الآيات الثّلاث الأُول . ويصحّ أن يكون عنوانه : يا أيّها النبىّ اتّق الله ، باعتبار التّقوى عماد النّعوت الّتى نصّت عليها الآيات الكريمات الثّلاث .

القسم الثانى : ويتكوّن من الآيتين الكريمتين الرّابعة والخامسة . ويصحّ أن يكون عنوانه : ادعوهم لآبائهم ، باعتبار هذه القضية ، أهمّ القضايا الثّلاث الّتى عرضت لها الآيتان الكريمتان ووقفت عندها وقفةً أطول .

القسم الثالث : ويتكوّن من الآيات الثّلاث ، السّادسة والسّابعة والثّامنة . ويصحّ أن يكون عنوانه : النبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، بسبب الاهتمام الفائق به ﷺ ، من زاوية كونه خير خلق الله تعالى كلّهم ، وأشرف الأنبياء والمرسلين .

وهذه الآيات الثّمان ، تتحدّث فى موضوعات متجانسة . ويمكن للوهلة الأولى أن نتبيّن التّرابط بين آيات الأقسام الثّلاثة على النّحو التّالى .

إنّ السّورة الكريمة فى قسمها الأوّل ، تخاطب المصطفى ﷺ ، الرّسول الأسوة ، فى طريقةٍ تشعر بسموّ منزلته الرّفيعة الفريدة عند بارئه ، كما أنّها تتحدّث فى قضايا سامية بعينها تتمشّى مع سموّ المخاطب . فالمطلوب منه ﷺ مُنتهى ما يُطْلَبُ مِنْ بشر ، ألا وهو تقوى الله تعالى ، الجامعة لكلّ الفضائل والخيرات ، وألاّ يطيع الكافرين والمنافقين ، بمعنى أن يعصيهم ، وأن يتّبع ما أوحى الله تعالى إليه ، مِنْ قرآن كريم وسنّة مطهّرة ، وأن يتوكّل على الله تعالى وحده لا شريك له . ويبدو سموّ هذه القضايا تبعاً لسموّ المخاطب الّذى وضعته السّورة الكريمة ذاتها فى مكان فريد خاصّ به ﷺ ، بين رسل الله تعالى ، صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين ● حينما نتحوّل مثلاً إلى الآية الكريمة التّاسعة فى السّورة الكريمة ، وأولى الآيات الّتى تتحدّث عن غزوة الأحزاب ، ونتدبّر المطلوب من المؤمنين المتقين الّذين تخاطبهم الآية الكريمة ، فى طريقة تنبّه إلى عظم شأنهم ورفيع منزلتهم عند بارئهم ، ونقارن ذلك بالمطلوب فى أولى آيات السّورة الكريمة ، إنّ المطلوب من المؤمنين ، وقد خلعت الآية

الكريمة عليهم أهمّ صفاتهم وهي صفة الإيمان ، أن يذكروا نعمة الله تعالى عليهم إذ جاءتهم جنود الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم ، وقد أعز الله جنده ، وهزم الأحزاب وحده . ويرتبط بذلك التّذكّر العمل كفاء تلك النّعمة الّتى امتنّ الله تعالى بها عليهم .

وإذا كان المصطفى ﷺ ، الأسوة الحسنة ، هو الّذى يتوجّه إليه الخطاب ، وأمته ﷺ تبعٌ له فى ذلك ، فإنّ القسم الثّانى يُرْشد أمّته ﷺ إلى وجه الصواب فى قضايا ثلاث ، آن الأوان كي تظهر على حقيقتها ويتّبع الأولى فى حقّها . أمّا هذه القضايا الثّلاث الّتى يقصد بها المؤمنون فى المقام الأوّل ، فإنّها التّنبيه إلى كونه جلّ وعلا لم يجعل لرجل واحدٍ من خلقه قلبين فى جوفه ، ولم يجعل الزّوجة أمّاً لمجرّد مظاهرة الزّوج منها ، بقوله على سبيل المثال لها ، قاصداً التحريم : أنت علىَّ كظهر أمّى . ولم يجعل الأدعياء أبناءً لمجرّد تبنى الواحد منهم ابن رجل غيره وادّعائه أنّه ابنه . إنّ هذه الأمور الثّلاثة ، يجمع بينها أنّها فى الحقيقة لا تعدو كونها أقوالاً تتفوّه بها الشّفاه ، وليس لها شيء من رصيد فى الواقع . هل مجرّد الزّعم بأنّ من الرّجال من له قلبان فى جوفه كاف لتحويل القول إلى حقيقة ؟ لا بطبيعة الحال . وهل مجرّد الزّعم بأنّ الظّهار قد نزّل الزّوجة المظاهر منها منزلة الأمّ الّتى حملت ابنها كرها ووضعته كرها ، يكفى لأن يحوّل فِعْلاً الزّوجة الّتى جعلها الله تعالى لزوجها لباسا ، إلى أمّ رءوم الجنّة تحت أقدامها ؟ لا بطبيعة الحال . وهل مجرّد التّبنىّ يكفى لجعل الدّعى المتبنىَّ (بفتح النّون المشدّدة) ابنا حقيقيّا من صلب المتبنّى (بكسر النّون المشدّدة) لا بطبيعة الحال .

إنّ خطاب المصطفى ﷺ فى آيات القسم الأوّل ، إذا كان يراد به كذلك أمّته باعتباره ﷺ الأسوة الحسنة ، فإنّ خطاب المؤمنين فى آيتى القسم الثّانى ، وبخاصّة بشأن ثالثة القضايا ، قضية التّبنىّ ، الّتى أولتها الآية الكريمة الثّانية كلّ عنايتها ، يراد به المصطفى ﷺ ، الّذى كان يتبنى زيد بن حارثة مولاه . والمعروف أنّ قضيّة التبنىّ إحدى القضايا التّشريعيّة الّتى أولتها السّورة الكريمة عنايتها البالغة . وحينما يخاطب المصطفى ﷺ بعد ذلك زيد بن حارثة متبنّاه ، والّذى كان يقال له زيد بن محمد بالقول : أنت أخونا ومولانا ، وبذلك يقضى ﷺ عمليّاً على هذه العادة يكون معنى

ذلك أنّ المؤمنين تبع له ﷺ فيما قال وفعل . والمعروف أنّ قضيّة التّبنّى بعد نزول هذه السّورة الكريمة ، تمّ القضاء عليها وغدت أثراً بعد عين .

وإذا كان القسم الثّانى قد بين وجه الحقّ وما هو أولى بشأن ثلاث من القضايا ، فإنّ أولى آيات القسم الثّالث بيّنت وجه الحقّ وما هو أولى بشأن ثلاث من القضايا كذلك . فالنّبىّ ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه ﷺ بمنزلة أمّهات المؤمنين فى بعض الأحكام ، وأولو الأرحام بشأن الميراث ، بعضهم أولى ببعض من أُخوّة الإيمان والهجرة . وإذا كان المؤمنون بفضل الله تعالى قد فعلوا كلّ ما أمرهم به المصطفى ﷺ وسلّم ، الّذى أنزل الله تعالى عليه وحيه فى أسمى طرق نزول الوحى ، فإنّ لهؤلاء المؤمنين المتّقين فيه ﷺ الأسوة الحسنة . فقد قضى ﷺ بعمله على مسألة التّبنّى . وبهذا العمل يتبيّن أنّنا بصدد الدليل العملى على ما نصت عليه الآيتان الكريمتان التّاليتان ، من كون أنبياء الله تعالى ، وفى مقدّمتهم محمّد بن عبد الله ﷺ ، قد أخذ الله تعالى عليهم الميثاق ، بأن يفعلوا كلّ ما يأمرهم به عزّ وجلّ.وقد فعلوا ذلك ابتداءً بإفراده جلّ وعلا بالعبادة . إنّ وفاءه ﷺ بالميثاق الّذى أخذ عليه ، والّذى تجلّى فى تحويله إلى عمل أمره جلّ وعلا فى القول : ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ﴾ بمثابة الدّليل العملىّ على الوفاء الكامل ، والصّدق المطلق ، المتوقّعين بصفة أكيدة ، من كلّ أنبياء الله تعالى ، على نحو ما نصّ على ذلك القرآن الكريم .

من هذه التّوطئة ، بين يدى دراسة هذه المجموعة من الآيات الكريمة فى الأقسام الثّلاثة ، يتبيّن التّرابط الوثيق ، بين حبّات معانى الآيات الكريمات الثّمان . قال تعالى : ﴿ **يا أيُّها النبىّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إنّ الله كان عليما حكيما . واتّبع ما يوحى إليك من ربّك . إنّ الله كان بما تعملون خبيراً . وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلا . ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللاّئى تظاهرون منهن أمّهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحقّ وهو يهدى السّبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدّين ومواليكم . وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما . النبىّ** ﴾

أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا . كان ذلك فى الكتاب مسطوراً . وإذ أخذنا من النّبيّين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا . ليسأل الصّادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذاباً أليما » .

وإنّ ذكر آخر الآيات للكافرين يعنى أنّها تشير إلى المشركين والمنافقين وكافرى أهل الكتاب . وسبق أن تحدّثت الآيات الكريمات عن أنبياء الله تعالى وعن المؤمنين . وبهذا تكون هذه المجموعة المترابطة من الآيات الكريمة ، قد أشارت إلى كلّ الفئات التى تتحدّث عنها سورة الأحزاب الكريمة . ونتحوّل الآن ، مستعينين بالله تعالى إلى دراسة أوّل الأقسام دراسة متأمّلة . فإلى آيات القسم الأوّل الثّلاث وعنوانه :

(١)

« يا أيها النّبي اتّق الله »

الآيات ١ ــ ٣

الآيات الثّلاث الأول . بسبب التّرابط بينها وتلاحمها معنويّا ، تشكّل قسماً قائماً برأسه . وهى تخاطب المصطفى ﷺ على جهة الخصوص ، فى طريقةٍ يُفْهَمُ معها منزلته ﷺ الرّفيعة عند بارئه ، وتعهده عزّ وجلّ له بالنّصح والتّسديد ، والعون والتّأييد . ممّا يعتبر تطبيقاً فعلياً ، وترجمةً دقيقة لتثبيت فؤاده ﷺ ، وهو الهدف من إنزال القرآن الكريم عليه منجمّاً فى سنواتٍ بلغت ثلاثاً وعشرين . وهذه هي الآيات الكريمات الثلاث . قال تعالى : ﴿ **يا أيُّها النّبى اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً . واتّبع ما يوحى إليك من ربّك ، إنّ الله كان بما تعملون خبيراً . وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾ .

إنّ كلاً من الآيات الثلاث . بحاجةٍ منّا إلى أن نقف عندها منفردة . فمع الآية (١) الكريمة الأولى ابتداءً . قال تعالى : ﴿ **يا أيّها النبّىّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إنّ الله كان عليماً حكيماً** ﴾ وثمة مجموعة من المسائل المتعلّقة بالآية الكريمة والتى تحتاج منّا إلى أن نتحدثّ عن كلّ منها ، وهي على النّحو التّالى .

١ – ما خصّ به ﷺ من نداء الله تعالى له بوصفه نبيّاً ورسولاً ، على جهة التّشريف والتكريم .

٢ – المصطفى ﷺ هو الأسوة الحسنة للمسلمين فى كلّ شئونهم . وتأتى التّقوى على رأس تلك الأمور ، ويرتبط بها ، ممّا جاء فى الآية الكريمة من تعاليم ، عدم طاعة الكافرين والمنافقين ، وممّا جاء فى الآيتين الكريمتين بعد ذلك اتّباع ما أوحى الله به إليه ، من قرآن كريم وسنّةٍ مطهّرة ، والتّوكّل عليه جلّ وعلا فى كلّ الأمور .

٣ – الله سبحانه وتعالى هو العليم الحكيم .

ممّا خصّ به المصطفى ﷺ دون سائر الأنبياء والمرسلين ، أنّ خطاب ربّ العزّة له وإشارته إليه – فى غير معرض التّعريف به والإعلام بكونه نبيّاً ورسولا – إنّما يتمّ عن طريق وصفه بأهمّ صفاته ، وأكبر نعم الله تعالى عليه ، ألا وهي نعمة النبوّة ونعمة الرّسالة . وتبدو على الحقيقة قيمة مثل هذا الخطاب الّذى اختصّ به ﷺ فى مطلع السّورة الكريمة وفى أثنائها : ﴿ **يا أيّها النّبىّ** ﴾ حينما نتبيّن أنّ الآية الكريمة الأربعين فى السّورة الكريمة تنصّ على كونه ﷺ خاتم النبيّين . قال تعالى : ﴿ **ما كان محمّد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيّين وكان الله بكلّ شيء عليماً** ﴾ .

ونحن نجد أمثال هذه الطّريقة الكريمة الجليلة فى التّنويه بشأنه ﷺ فى العديد من المواضع . ففى هذه السّورة الكريمة مثلاً نحن نتبيّن الطّريقة من التّشريف ذاتها فى قوله تعالى :[1] ﴿ **يا أيها النّبىّ قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعّكن وأسرّحكن سراحاً جميلا** ﴾ وفى قوله تعالى :[2] ﴿ **يا أيها النّبى إنّا أرسلناك شاهداً ومبشرا ونذيرا** ﴾ وفى قوله تعالى :[3] : ﴿ **يا أيّها النبى إنّا أحللنا لك أزواجك اللاّتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك ممّا أفاء الله عليك وبنات عمّك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاّتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنّبىّ إن أراد النّبىّ أن يستنكحها خالصة من دون المؤمنين . قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج . وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ وفى قوله تعالى :[4] : ﴿ **يا أيّها النّبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلا بيبهن ذلك أدنى أن يُعْرَفْن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ .

وصيغة الخطاب هذه : ﴿ **يا أيّها النّبي** ﴾ هي التى جاءت كثيراً فى مواطن

---

(١) الآية ٢٨ .
(٢) الآية ٤٥ .
(٣) الآية ٥٠ .
(٤) الآية ٥٩ .

متفرقة فى القرآن الكريم . ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الطّلاق[1] : ﴿ **يا أيُّها النّبىّ إذا طلقتم النّساء فطلّقوهن لعدّتهنّ وأحصوا العدّة واتّقوا الله ربكم . لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ ولا يخرجن إلاّ أن يأتين بفاحشة مبيّنة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعدّ حدودَ الله فقد ظلم نفسه . لا تدرى لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرا** ﴾ وقوله تعالى فى سورة التّحريم[2] : ﴿ **يا أيّها النبىّ لم تُحرّم ما أحلّ الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم** ﴾ إلى غير ذلك من المواضع الأخر[3]

كما جاء خطاب المصطفى ﷺ بالرّسول فى قوله تعالى[4] : ﴿ **يا أيُّها الرّسول لا يحزنك الّذين يسارعون فى الكفر من الّذين قالوا آمنّا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الّذين هادوا سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرّفون الكلم مِنْ بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوْه فاحْذروا . ومَنْ يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ، أولئك الّذين لم يرد الله أن يطهرّ قلوبهم ، لهم فى الدّنيا خزى ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيم** ﴾ وقوله تعالى[5] : ﴿ **يا أيّها الرّسول بلغ ما أُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من النّاس إنّ الله لا يهدى القوم الكافرين** ﴾ .

ونستطيع أن ندرك بعض أبعاد التشريف والتكريم بمخاطبته ﷺ بالقول : ﴿ **يا أيها النبى** ﴾ والقول : ﴿ **يا أيها الرسول** ﴾ حينما نتبيّن أنّ رب العزّة يخاطب فى محكم كتابه الرّسل الآخرين بأسمائهم . وإنّما يذكر اسمه ﷺ حينما يراد الإعلام برسالته ﷺ ، والتّعريف بنبوّته . أمّا فيما عدا ذلك فيشار إليه بما اصطفاه الله تعالى به من كونه نبيّاً ورسولا . يقول القاضى عياض[6] : وممّا ذكر من خصائصه وبرّ الله تعالى به أنّ الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم فقال : يا آدم يا نوح يا إبراهيم يا موسى يا داود يا عيسى يا زكريّا يا يحيى . ولم يخاطب هو إلاّ : يا أيها

---

(١) الآية ١ .

(٢) الآية ١ .

(٣) يمكن إحصاؤها بيسر عن طريق المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

(٤) سورة المائدة ٤١ .

(٥) سورة المائدة ٦٧ .

(٦) انظر هنا الشّفا للقاضى عياض ٣١/١ .

الرّسول . يا أيُّها النّبيّ . يا أيُّها المزمّل . يا أيُّها المدّثّر ،»جاء على سبيل المثال فى الذّكر الحكيم خطابا لآدم عليه السلام قوله عزّ من قائل[1] :﴿ **قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّى أعلم غيب السّماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون** ﴾ وقوله عزّ من قائل[2] : ﴿ **وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشّجرة فتكونا من الظّالمين** ﴾ وجاء خطاباً لنوح عليه السّلام قوله عزّ من قائل[3] :﴿ **قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممّن معك . وأممٌ سنمتّعهم ثمّ يمسّهم منا عذابٌ أليم** ﴾ وجاء خطاباً لإبراهيم عليه السّلام قوله عزّ من قائل[4] : ﴿ **وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرّؤيا إنّا كذلك نجزى المحسنين** ﴾ وجاء خطاباً لموسى عليه السّلام قوله عزّ من قائل[5] :﴿ **قال يا موسى إنّى اصطفيتك على النّاس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشّاكرين** ﴾ وجاء خطاباً لعيسى عليه السّلام قوله عزّ من قائل[6] : ﴿ **وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للنّاس اتخذونى وأمّى إلهين من دون الله . قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحقّ . إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنّك أنت علاّم الغيوب** ﴾ وجاء عن زكريّا عليه السّلام قوله عزّ من قائل[7] : ﴿ **يا زكريّا إنّا نبشّرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميّا** » وجاء عن يحيى عليه السّلام قوله عزّ من قائل[8] : ﴿ **يا يحيى خذ الكتاب بقوّة وآتيناه الحكم صبيّا** ﴾.

إنّه إذا كان الخطاب فى الذّكر الحكيم لهؤلاء الأنبياء والرّسل الكرام ولسواهم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، قد جاء بصريح الأسماء ، فإنّ

---

(١) سورة البقرة ٣٣ .
(٢) سورة البقرة ٣٥ .
(٣) سورة هود ٤٨ .
(٤) سورة الصّافّات ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٥) سورة الأعراف ١٤٤ .
(٦) سورة المائدة ١١٦ .
(٧) سورة مريم ٧ .
(٨) سورة مريم ١٢ .

المصطفى ﷺ إنّما يجيء اسمه صريحاً فى معرض إعلام العباد برسالته ﷺ ، وكونه خاتم الأنبياء والمرسلين .وقد خصّه الله تعالى بآخر الكتب السّماويّة وأشرفها . جاء فى سورة الأحزاب[1] قوله تعالى : ﴿ **ما كان محمّدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكلّ شيء عليما** ﴾ وجاء فى سورة آل عمران[2] قوله تعالى : ﴿ **وما محمّد إلاّ رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسُل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزى الله الشّاكرين** ﴾ وجاء فى سورة الفتح[3] وقوله تعالى : ﴿ **محمّدٌ رسول الله والّذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم تراهم ركّعا سجّداً يبتغون فضلا من الله ورضْوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السّجود . ذلك مَثَلُهُمْ فى التّوراة . ومَثَلُهُمْ فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار . وعد الله الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾ وجاء فى سورة محمّد عليه السّلام[4] قوله تعالى : ﴿ **الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم .والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات وآمنوا بما نُزل على محمّد وهو الحقّ من ربهم كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم** ﴾ .

الصلاة ،

وحينما لا يقصد التّعليم والتلقين من الإخبار يجيء ذكره ﷺ بنحو ما ذكره فى النّداء[5] جاء على سبيل المثال فى معرض الحديث عنه ﷺ قوله تعالى[6] : ﴿ **لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ .

وهكذا يتبين شيء من منزلته ﷺ عند بارئه . فخطاب ربّ العزّة له وحديثه عنه إنّما يتمّ عن طريق التّنويه بشأنه ﷺ ورفع ذكره ، فهو الرسول الخاتم والنبىّ الأمين . ولا يجيء ذكر اسمه إلاّ فى معرض تعريف العباد بما خصّ الله تعالى به هذا

---

(١) الآية ٤٠ .
(٢) الآية ١٤٤ .
(٣) الآية ٢٩ .
(٤) الآية ١ ، ٢ .
(٥) انظر هنا الكشاف ٥٢٨/٢ والبحر المحيط ٢١٠/٧ .
(٦) سورة التوبة ١٢٨ .

الرّسول الكريم ، رحمة الله تعالى المهداة ، ونعمته المسداة ، والنّور المبين ، والسّراج المنير ﷺ .

وقد أمرت الآية الكريمة المصطفى ﷺ بأن يتقي الله تعالى، والمعنى : «واظب على ما أنت عليه من التقوى واثبت عليه وازدد منه، وذلك لأنّ التقوى بابٌ لا يبلغ آخره »[1] وإذا كنّا نستطيع أن نقول إنّ ثمّة علاقة من نوع مّا بين الوقاية فى المجال الحسى ، وبين التقوى فى المجال المعنوى ، بجامع دفع الأذى فى كلّ ، فإنّا نستطيع ان نفهم التّقوى بأنّها من جنس الإحسان كما عرّفه الحديث الصّحيح، فهذا جبريل عليه السّلام يسأل المصطفى ﷺ عن الإحسان ، ويجيب ﷺ قائلاً : « **أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** »[2] فبما أنّ مفهوم العبادة فى الإسلام واسع إلى أبعد الدّرجات ، بحيث إنّ كلّ عمل صالح يقوم به الإنسان وهو يريد به وجه ربّه الأعلى ، يعتبر داخلاً فى مفهوم العبادة ، وبما أنّ درجة الإحسان تعنى أنّ الإنسان يراقب الله تعالى فى كلّ مايأتى ومايدع، لأنّه على يقين من أن الله تعالى الّذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء يراه ، فمعنى هذا أنّ من تحقّقت فيه هذه الصفات يكون بإذن الله تعالى محسناً ويوصف بالتقوى . ونحن نستطيع أن نتبين العلاقة الوثيقة بين التقوى والإحسان فى مثل قوله تعالى على لسان يوسف عليه السّلام[3] **إنّه من يتّق الله ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** » وقد كان النصّ على الصبر فى الآية الكريمة مقروناً بالتّقوى كي يؤديا إلى الإحسان ، لأنّ الصّبر عماد كل أنواع العبادة . هذا بالإضافة إلى أنّ للصّبر دوراً بارزاً فى سورة يوسف عليه السّلام ، الّذى تجيء على لسانه الآية الكريمة . والمعروف أنّه كان أكثر شخصيّات سورة يوسف الكريمة ابتلاء منه عزّ وجلّ وصبراً بعون منه تعالى وفضل .

وإنّ المصطفى ﷺ ليأمره عزّ وجلّ بالتّقوى ، وإنّ أمته ﷺ تبع له فى ذلك ، لأنّه عليه الصّلاة والسّلام ، كما نصّت السّورة الكريمة ذاتها ، هو الأسوة الحسنة . وقد جاء فى الحثّ على التقوى قوله تعالى فى سورة النساء[4] : **ولقد وصّينا الّذين**

---

(١) الكشاف ٢/٥٢٨ .
(٢) صحيح البخارى ١/٢٠ .
(٣) سورة يوسف ٩٠ .
(٤) الآية ١٣١ .

أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾ فالمصطفى ﷺ يأمره عزّ وجلّ بأن يتّقي الله تعالى . وهذا معناه أنّ التّقوى لا نهاية لها ولا حدّ لآخرها ، لأنّ خير خلق الله تعالى كلّهم ، محمّد بن عبد الله ﷺ ، رسول الله وخاتم النبيين . يأمره عزّ وجلّ بالتّقوى ، فمن باب أولى سائر الخلق .

إنّ السّياق يجمع بين تشريفه ﷺ بالقول خطاباً له : **﴿ يا أيّها النبيّ ﴾** وبين الأمر بالتّقوى : اتّق الله وبذلك يرفع من قمة التّقوى إلى أرفع الدّرجات الّتى يستطيع أن يرتفع إليها عباد الله تعالى الصّالحون الّذين أعانهم الله تعالى على أن يكونوا أتقياء . ومع تفاوت ارتفاعات قمم التّقوى ، بحسب تفاوت العباد فى العطاء ، يظلّ الطّريق دائماً وأبداً مفتوحاً ومستمرّاً لكلّ مستزيد . فما أحرانا جميعاً أن نتدبر جيّداً خطاب ربّ العزّة لإمام المتقين وسيّد المرسلين بالقول : **﴿ يا أيُّها النّبىّ اتّق الله ﴾** وأن نعرف جيّداً بأنّنا المعنيّون فى حقيقة الأمر بالخطاب ، لأنّ إمام المتّقين يأمره ربّ العزّة بالتّقوى ، وهو الّذى غفر الله تعالى له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، فكيف بالعبد الّذى هو بين مخافتين ، بين ماض لا يدرى ما الله صانع به، وبين آت لا يدرى ما الله قاض فيه .

إنّه ينبغى على المسلم لله ربّ العالمين أن يترجم إلى عمل قوله تعالى[1] : **﴿ ولقد وصّينا الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتّقوا الله ﴾** وهكذا يتبين أنّ السّياق المتضمن تشريفه ﷺ ، عن طريق خطابه بالقول : **﴿ يا أيُّها النبىّ ﴾** قد امتدّت أنواره إلى صفة التّقوى المضيئة الوضيئة . قال تعالى : **﴿ يا أيّها النّبىّ اتّق الله ﴾** .

لقد بيّنا أنّ التقوى ذات العلاقة بالإحسان قادرةٌ على أن تمتدّ فتشمل كلّ ما يصدر عن الإنسان من أقوال وأفعال فى مجال العبادة والسّلوك والمعاملة . ونستطيع أن نتبين كذلك أنّ التّقوى صفة تعْنى أنّ المتحلى بها لا يصدر منه بإذنه تعالى إلاّ كلّ خير . فما هو موقف هذا التّقى من خصوم الإسلام الّذين يظهرون عذب القول ، وناعم الملمس ، ولين الجانب ، وخلاب النّصيحة ؟ موقف هذا التّقى بنصّ القرآن الكريم هو عدم طاعة هؤلاء الكافرين والمنافقين مطلقا ، وعدم الإصغاء لهم ،

---

(١) سورة النساء ١٣١ .

والاطمئنان إليهم ، والثقة بهم . قال تعالى خطاباً له ﷺ : ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين** ﴾ ويأتى كفار مكّة على رأس الكافرين فى كلّ زمان ومكان . ويأتى منافقو المدينة على رأس المنافقين فى كلّ زمان ومكان[1] وها هو ذا المصطفى ﷺ ، الأسوة الحسنة ، ينهاه ربّ العزّة فى محكم كتابه عن طاعة الكافرين والمنافقين . والآية الكريمة بذلك تأخذ بسبب من قوله تعالى فى سورة المائدة عن المؤمنين[2] : ﴿ **أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين** ﴾ وقوله تعالى فى سورة الفتح[3] : ﴿ **محمدٌ رسول الله والّذين معه أشداء على الكفّار رحماء بينهم** ﴾ فمن متعلقات التّقوى اليقظة من الأعداء ، والحذر من الخصوم ، وعدم الغفلة طرفة عين عن كلّ صغيرة وكبيرة تصدر من أعداء الّدين ، ولو كان ظاهر ذلك الرّحمة ، فى هيئة القول اللّيّن ، والملمس النّاعم ، فإنّ باطن كلّ ذلك العذاب . إنّ مِنْ مقوّمات التقوى عدم إحسان الظنّ مطلقا بالخصوم . فلا يُصْغى إلى أى قول منهم ، ولا يطاعون فى شأن واحد من الشئون الّتى تهمّ المسلمين . وما بال البعض يجادل فى هذا والقرآن الكريم يقول بصريح اللّفظ[4] : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنّصارى أولياء بعضهم أولياء بعض . ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم. إنّ الله لا يهدى القوم الظّالمين . فترى الّذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة . فعسىَ الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسرّوا فى أنفسهم نادمين** ﴾ وجاء فى سورة النساء[5] قوله تعالى : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين.أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا . إنّ المنافقين فى الدّرك الأسفل من النّار ولن تجد لهم نصيراً** ﴾ وبصريح القرآن الكريم المنافقون والكافرون واليهود إخوان . جاء فى سورة الحشر[6] قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الّذين نافقوا يقولون لإخوانهم الّذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن**

---

(١) انظر ما قيل فى سبب نزول الآية الكريمة فى لباب النقول فى أسباب النزول ص ١٧١ والبحر المحيط ٧/٢١٠ والكشّاف ٢/٥٢٨ وتفسير القرطبى ٥١٩٦ .

(٢) الآية ٥٤ .

(٣) الآية ٢٩ .

(٤) سورة المائدة ٥١ ، ٥٢ .

(٥) الآية ١٤٤ ، ١٤٥ يطلق لفظ الدّرج إذا روعى الصّعود والدّرك إذا روعى النزول .

(٦) الآية ١١ .

معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصركم والله يشهد إنّهم لكاذبون ﴾
وبعد حديث سورة محمّد عليه الصّلاة والسلام عن الكافرين يجيء الحديث عن المنافقين باعتبارهم جزءاً لا يتجزأ من الكافرين فى قوله تعالى[1] : **﴿ومنهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا . أولئك الّذين طبع الله على قلوبهم واتّبعوا أهواءهم ﴾** .

إنّ التّقىّ لا يكون خبّا مخادعا ، وفى الوقت ذاته ، لا ينبغى أن يخدعه الخبّ[2] وإنّ واجب التّقىّ أن يعرف الشّرّ كيلا يقع فيه فليس من متعلّقات التّقوى أن يكون الإنسان غراً غفلاً من التّجارب . وقد قال المصطفى ﷺ : « **إن المؤمن لا يُلْدغ من جحر مرّتين** »[3] وقيل لأحد الحكماء : فلان لا يعرف الشرّ قال : ذلك أجدر أن يقع فيه وقد قيل :

عرفت الشر لا للشر لكـــن لتوقّيـــه
ومن لا يعرف الشّرّ من النّاس يقع فيه[4]

وقد بين القرآن الكريم فى سورة الممتحنة الموقف الّذى ينبغى أن يقف عنده المسلم لله ربّ العالمين ولا يتجاوزه . قال تعالى[5] : **﴿لا ينهاكم الله عن الّذين لم يقاتلوكم فى الدّين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحبّ المقسطين . إنّما ينهاكم الله عن الّذين قاتلوكم فى الدّين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولّهم فأولئك هم الظّالمون ﴾** .

ونحن إذا نظرنا إلى آية سورة الأحزاب الكريمة من زاوية ترابط أجزائها ، استطعنا وقد تبينا معنى هذا القسم الّذى يتكوّن من معنيين أو شقّين : **﴿يا أيّها النبى اتق الله﴾** أن نقول : إنّها تتكوّن من ثلاثة أقسام . وإذا كان القسم الأوّل يتكوّن من

---

(١) سورة محمد الآية ١٦ .
(٢) روى أن أحد الحكماء قال : لست خبا والخب لا يخدعنى الخبّ بالفتح والكسر الرّجل الخدّاع . وجاء فى اللسان « خبب » : « وقال ابن سيرين : إنّى لست بخبّ ولكنّ الخبّ لا يخدعنى » .
(٣) السّيرة النبويّة (محمّد محي الدّين عبد الحميد) ٥٦/٣ .
(٤) تفسير آيات الأحكام للسايس ٢٠/١ .
(٥) سورة الممتحنة الآية ٨ ، ٩ .

معنيين كما قلنا أو شقين ، فإنّ الشّيء ذاته يمكن أن يقال عن كلّ من القسمين الثّانى والثّالث : ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين ، إنّ الله كان عليماً حكيماً** ﴾ . وهذه هى الآية الكريمة بتمامها : ﴿ **يا أيها النبىّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إنّ الله كان عليماً حكيماً** ﴾ .

ولعلّنا لاحظنا أنّ القسم الثّانى عبارةٌ عن نهى للرّسول الكريم عن طاعة الكافرين والمنافقين . وقد جاء ذلك إثر الأمر له ﷺ بأن يتّقى الله تعالى . أما وقد عرفنا المكانة الرّفيعة للأمر بالتّقوى الّذى جاء إثر خطاب فريد فى بابه له ﷺ ، فإنّ شيئاً من هذه الأهمية ينسحب على النّهى . وأوّل ما يصادفنا بشأن هذ القسم الثّانى هو أنّه يعطف على سابقه بالواو وليس بالفاء مثلاً التى يبنى ما بعدها على ما قبلها باعتباره علّة له . والمعروف أنّ واو العطف تفيد مجرّد الجمع . فمعنى هذا أنّنا بصدد شيئين منفصلين متّصلين . أمّا الانفصال فلأنّ النّهى غير الأمر . وأمّا الاتصال فلأنّ الأمر المنهىّ عنه مكملٌ للأمر المأمور به . وقد تبيّنا أنّ التّقوى ، وهى بمعنى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله . وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله[1] لا تقف عند تنقية ما يصدر من التّقيّ وتصفيته ، إنّما تتجاوز ذلك كى تشمل فى ذات الوقت تنقية ما يأتى من الخارج وتصفيته ، فإن كان مظنة اشتماله على أدنى مظهر من مظاهر الشرّ تمّ إبعاده وطرده . وهانحن أولاء أمام هذه الصّورة الكاملة للتّقوى الّتى تسعى فى آن واحد إلى تحقيق أسمى مطلوب وطرد أدنى منبوذ .

وإنّ هذه المسألة بحاجة منا إلى نظرة متأنية . وهى نظرة تنطلق من التّقابل بين الأمر والنّهى . وقد ارتبط بهما أمرٌ بأعلى القمم ، المرغوب فيها ، ونهىٌ عن أخفض الوهاد المرغوب عنها . وتفسير ذلك أنّنا إذا كنّا بصدد أمر بالتّقوى والمداومة عليها ، ومعروفٌ أنّ التقوى طريقٌ لا نهاية له ، وهو بحاجة إلى أن يتزوّد المرء من أجله بالكثير من الزّاد ، ومعروفٌ كذلك أنّ البقاء على القمّة أصعب من الوصول إليها غالبا ، بسبب استمرار العواصف الهوج واشتدادها ، إذا كنّا بصدد أمر بالتّقوى وهى أعلى القمم المرغوب فيها فإنّنا كذلك بصدد نهى عن طاعة الكافرين والمنافقين وهى

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٥/٣ .

أخفض الوهاد المرغوب عنا وأحطها . وإنّ فى الرّغبة عنها رغبة ضمنيّة عن كلّ ملابساتها . وهذه النظرة يمكن استنتاجها من الاتّجاهين المتقابلين للصّفتين اللّتين تعتبران غايتين للكثير من الأمور الموطئة لهما . فبما أنّ التّقوى المرغوب فيها تحتاج إلى الكثير من الاجتهادات والرّياضات السّابقة عليها ، فكذلك طاعة الكافرين والمنافقين المرغوب عنها ، يرتبط بها الكثير من التّوطئات والملابسات المنهىّ عنها كذلك . إن كلاًّمن الأمر والنّهى بحاجة إلى بذل مجهود من أجله .

وإذا كنّا بشأن التّقوى قد وجدنا فى الحديث النّبوى الشّريف توضيحا لملابساتها وأبعادها ، وذلك فى مرتبة الإحسان الّتى يرتبط بها ويتداخل معها حلقتان هما الإسلام والإيمان . فإنّ شيئاً كهذا يمكن أن يقال عن طاعة الكافرين والمنافقين المرغوب عنها . فكيلا يتورّط المسلم لله ربّ العالمين فى طاعة الكافرين والمنافقين ، وكما جاء فى الحديث النبوى الشّريف : عليه ألاّ يرعى حول الحمى . لأنّ الرّاعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه[1] فواجب المسلم لله ربّ العالمين ، كي يكمل الشّقّ الثّانى للتّقوى فى عدم طاعة الكافرين والمنافقين أن يجتهد فى الابتعاد عن أسبابها . فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشّكّ أنّ غير المسلمين فى أحسن حالات معاملتهم للمسلمين يقفون موقفاً محايداً ، ليس فيه إلحاق ضرر بالمسلمين ، وفى الوقت ذاته ليس فيه حماسٌ لجلب أدنى نفع لهم . فما الّذى يمكن أن يرجوه المسلمون لله ربّ العالمين من غير المسلمين ، وقد جاء فى القرآن الكريم تنبيهٌ للمسلمين بألاّ يندفعوا وراء الأوهام ، وألاّ يلهثوا خلف السّراب ؟ جاء فى سورة آل عمران[2] مثلاً قوله تعالى : **﴿ يا أيُّها الّذين آمنوا لا تتخذوا بطانة مِنْ دونكم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتمّ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر. قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبّونكم وتؤمنون بالكتاب كلّه . وإذا لقوكم قالوا آمنّا وإذا خَلَوْا عضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ. قُلْ موتوا بغيظكم إنّ الله عليمٌ بذات الصّدور . إن تمسسكم حسنةٌ تسؤهم وإن تصبكم سيّئة يفرحوا بها. وإن تصبروا وتتّقوا**

---

(١) الحديث بكماله فى صحيح البخارى ١/٢٠ .

(٢) الآيات ١١٨ - ١٢٠ .

لا يضرّكم كيدهم شيئاً . إن الله بما يعملون محيط ﴾ .

إنّ ربّ العزّة لم ينهنا فى محكم كتابه عن أن نبرّ المخالفين لنا فى العقيدة أو أن نقسط إليهم ، وهم الّذين لم يقاتلونا فى الدّين ، ولم يخرجونا من ديارنا ، ولم يظاهروا على إخراجنا . ولكنه جلّ وعلا نهانا عن أن نتّخذهم أولياء ، خصوصاً إذا كانوا قد قاتلونا فى الدين وأخرجونا من ديارنا وظاهروا على إخراجنا . وإذا كان أخفض الوهاد المرغوب عنها فى الآية الكريمة ، هى طاعة الكافرين والمنافقين ، فإنّ كلّ ما أدى إلى هذا الدّرك[1] الأسفل من الانحطاط لاحقٌ به ، من إصغاء إليهم ، واستشارة لهم ، واستنصاحهم ، وثقة بهم ، واطمئنان إليهم ، واندفاع نحوهم ، وانسياق معهم . إنّ كلّ هذه الأمور ينبغى أن تكون وقفاً على المسلمين لله ربّ العالمين . وقد قال عزّ من قائل فى محكم كتابه[2] : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾ وقال[3] : ﴿ **إنّما المؤمنون إخوة** ﴾ وقال[4] : ﴿ **محمّدٌ رسول الله . والّذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة،ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزّرّاع ليغيظ بهم الكفّار . وعد الله الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾ وقال[5] : ﴿ **وتعاونوا على البرّ والتّقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ .

وهكذا يتبين أنّنا فى القسم الثّانى هذا : ولا تطع الكافرين والمنافقين، بصدد معنيين اثنيين ، على غرار المعنيين الاثنيين فى القسم الأول ، وهما تشريف الرّسول الكريم بمخاطبة ربّ العزّة له بالقول : ﴿ **يا أيُّها النّبىّ** ﴾ وأمره بالتّقوى : ﴿ **اتق الله** ﴾ أمّا الكافرون فهم الّذين كفرو الحقّ بمعنى ستروه وأخفوه وأعلنوا اعتقادهم ، ككفار مكّة وأمّا المنافقون فهم الّذين كفروا الحقّ اعتقادا وأعلنوه كلاما . فثمّة مضادة بين ما يعتقد المنافقون ويبطنون من كفر . وبين ما يتفوّهون به ويظهـــرون مـــن

---

(١) بتسكين الرّاء وتحريكها بالفتحة .
(٢) سورة آل عمران ١٠٣ .
(٣) سورة الحجرات ١٠ .
(٤) سورة الفتح ٢٩ .
(٥) سورة المائدة ٢ .

إسلام . أمّا الكافرون فثمّة موافقة بين باطنهم وظاهرهم ، سرّهم وجهرهم ، إنّه الكفر الصريح وها هو ذا القرآن الكريم يأمر المصطفى ﷺ . وأمّته تبعٌ له فى ذلك . بألاّ يطيع الكافرين والمنافقين مطلقا . وأن يسدّ عليهم كلّ المنافذ الّتى يمكن لهم أن يتسلّلوا خلال مساربها . قال تعالى[1] : ﴿ **والّذين كفروا بعضهم أولياء بعض** ﴾ قال تعالى : « **يا أيّها النّبىّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً** » .

وإنّ ما قيل عن القسمين الأوّل والثّانى ، من كون كلّ منهما يشتمل على معنيين ، يمكن أن يقال بشأن القسم الثّالث . فالله تعالى عليم حكيم : ﴿ **إن الله كان عليماً حكيماً** ﴾ إنّ ربّ العزّة العليم الحكيم الخبير ، الّذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء،والّذى خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه ، هو الّذى يأمرنا بأن نتّقيه جلّ وعلا حقّ تقاته ، وألاّ نطيع الكافرين والمنافقين . وهو – جلّ وعلا – الّذى يبيّن لنا أنّ عدم طاعة الكافرين والمنافقين ، وسدّ السُّبل المؤدّية إلى هذه العاقبة الوخيمة ، عاملٌ قويٌّ فى تحقيق التّقوى . وليت المسلمين ، وبخاصّة فى هذا العصر ، الّذى تتكالب فيه الأمم غير المسلمة عليهم ، كما تتكالب الأكلة على قصعتها ، يعون هذا الدّرس القرآنى ، وهذا المنهج التّربوىّ الرّبّانىّ ، فإنّ فيه وحده النّجاة دون سواه . والله الهادى إلى سواء السّبيل . قال عز من قائل : ﴿ **يا أيُّها النّبىّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إنّ الله كان عليماً حكيماً** ﴾ .

إذا كنا تبيّنّا أنّ من متعلّقات التّقوى عدم طاعة الكافرين والمنافقين ، وما يسبق هذه الطّاعة من استماع إليهم وإصغاء ، وثقة بهم واطمئنان ، واستشارة لهم واستنصاح ، وما يلى تلك الطّاعة من ترجمة لها إلى أقوال توافق أهواء الكافرين والمنافقين ، وأعمال تعنى اتّباعهم ، فإنّ هذه التّقوى لها متعلقان آخران كذلك ، بيّنتهما الآيتان الكريمتان التّاليتان فى خطابهما له ﷺ وأمّته تبعٌ له فى ذلك . قال تعالى : ﴿ **واتبع ما يُوحَى إليك من ربّك ؛ إنّ الله كان بما تعملون خبيراً . وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾ وهذان المتعلّقان كما هو واضح ، اتباع ما أوحى الله

---

(١) سورة الأنفال ٧٣ .

تعالى وما يوحى إليه ﷺ ، من قرآن كريم وسنّة مطهّرة ، وترجمة ذلك الاتّباع إلى عزم ماض ينبغى أن يتوكّل معه المسلم لله ربّ العالمين على الله تعالى وحده لا شريك له .

ولعلّنا لاحظنا تلاحم الآيات الثّلاث معنويّا . فإذا كانت طاعة الكافرين والمنافقين أمراً منهيّاً عنه وكانت هذه الطّاعة تتجلّى حتما فى اتّباع القوم ، فإنّ القرآن الكريم ، يبيّن للرّسول الكريم ، البديل الصّحيح المتّبع . وبما أنّ هذا البديل الصّحيح ، إنّما هو وحى من الله تعالى ، تجلّى فى القرآن الكريم ، والحديث النبوىّ الشّريف ، فعلى المصطفى ﷺ أن يتوكّل على الله تعالى فيما عزم عليه . والمعروف أنّه ﷺ من أولى العزم من الرّسل . وكفى بالله وكيلا لمن توكّل عليه وأناب إليه[1] .

وإنّ ثمّة مجموعة من الأمور بحاجة منا إلى أن نقف عندها قليلاً بشأن الآية الكريمة الثّانية . وهى على النّحو التّالى :

١ – صيغة النّهى محدودة : « **ولا تطع الكافرين والمنافقين** » لأنّ طاقة هؤلاء محدودة . وكيف لا يكون الأمر كذلك وإنّ ربّ العزّة يبيّن فى محكم كتابه عن الكافرين عموماً بأنّهم لا مولى لهم ، بينما ربّ العزّة هو مولى المؤمنين . جاء فى سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام قوله تعالى[2] ﴿ **ذلك بأنّ الله مولى الّذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم** ﴾ بينما مالت صيغة الأمر إلى شىء من الطّول والتنويع . قال تعالى : ﴿ **يا أيّها النّبىّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إنّ الله كان عليماً حكيماً . واتّبع ما يوحى إليك من ربّك إنّ الله كان بما تعملون خبيراً . وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾ إنّ الكافرين والمنافقين إنّما يستمدون قوتهم من ضعف المسلمين أنفسهم . وحينما يكون المسلمون لله ربّ العالمين أقوياء بالله تعالى ، وها هو ذا القرآن الكريم يرشدهم إلى طريق العزّة والكرامة ، فإنّ الكافرين لن يتجاوزوا بحال من الأحوال حجمهم الطّبيعىّ الصّغير الحقير المنكمش المنزوى المتلاشى . فواجب المسلمين لله ربّ العالمين ، ولهم فى المصطفى ﷺ الأسوة الحسنة ، أن يتّبعوا ما أوحى إليه ﷺ ، من قرآن مجيد وسنّة مطهّرة .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٦٥ .

(٢) سورة محمّد ١١ .

٢ – لنتدبر هذه الصّيغة المتعلقة باتّباعه ﷺ ما أُوحى إليه من ربّه : ﴿ **واتبع ما يُوحَى إليك من ربكَ** ﴾ إنّ المصطفى ﷺ ، خير خلق الله تعالى كلّهم ، مأمورٌ بأن يتبع ما يوحى إليه من ربّه . وتأمل جملة « واتبع » إنّها جملة ليس لها النظير فى بابها فى الدلالة على الاتّباع المطلق لما أوحى الله تعالى به.ويُفْهَمُ من هذا النّصّ القرآنى أنّه لا اجتهاد مع النصّ وكما يقول القرطبى[١] : وفيه دليلٌ على ترك اتّباع الآراء مع وجودالنّصّ»وهذه قاعدة فقهية . فإذا كان ربّ العزّة يأمر حبيبه المصطفى ﷺ بالاتّباع الطلق لما أوحى إليه ، فكيف بأمته ﷺ . إنّ الاتّباع المطلق من قبلهم ،لما أوحى الله تعالى إلى رسوله الكريم ، من قرآن حكيم وسنّة مطهّرة ، ينبغى أن يكون كاملا . ومن فضل الله تعالى علينا نحن المسلمين أنّ القرآن الكريم قد تكفّل ربُّ العزّة إلى أن يرث عزّ وجلّ الأرض ومن عليها . قال عزّ من قائل[٢] : ﴿ **إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون** ﴾ كما أنّ السّنّة النبوية المطهّرة الموحى بها من الله تعالى كما جاء فى الذّكر الحكيم فى قوله عزّ من قائل[٣] ﴿ **وأنزلنا إليك الذّكر لنبين للنّاس ما نُزّل إليهم ولعلّهم يتفكرون** ﴾ وقوله عزّ من قائل[٤]خطابا لأمهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهن : ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إنّ الله كان لطيفا خبيراً** ﴾ أقول إنّ السّنّة النّبوية المطهّرة قد هيّأ الله تعالى لها من العلماء الغيورين عليها ما جعلها على ما كانت عليه نقية صافية . فقد ميز العلماء صحيح الأحاديث من سقيمها ، قويّها من ضعيفها . ويكفينا فى هذا المجال أن نشير إلى بضعة الآلاف القليلة التى ضمنها الإمام البخارى صحيحه[٥] من بين الستّمائة الألف حديث الّتى وقف عليها . وكانت النتائج الباهرة لتلك الأعمال ، والثمار اليانعة لها، مصداقاً لما جاء فى هذه السورة الكريمة من كونه عليه الصّلاة والسّلام هو الأسوة الحسنة لنا نحن المسلمين.فنحن نعرف عنه ﷺ كلّ صغيرة وكبيرة تخطر ببال بشر . قال تعالى[٦] : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة**

---

(١) تفسير القرطبى ص ٥١٩٧ .
(٢) سورة الحجر ٩ .
(٣) سورة النحل ٤٤ .
(٤) سورة الأحزاب ٣٤ .
(٥) أحاديث صحيح البخارى سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون وباسقاط المكرّر أربعة آلاف .
(٦) سورة الأحزاب ٢١ .

لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ وحينما يقول العلماء : إنّه لا اجتهاد مع النصّ ، ففى ذلك دليلٌ على أن باب الاجتهاد ، مع عدم وجود النصّ ، مفتوحٌ على مصراعيه لمن هم أهله ، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها . وليس بخاف أنّ مصادر التشريع فى الإسلام هي على التّوالى : القرآن . السنّة . الاجماع . القياس . الاجتهاد .

٣ – إنّا نتبيّن فى هذا الاختصاص بالخطاب : **﴿واتبع ما يوحى إليك من ربّك﴾** منزلته ﷺ الرّفيعة عند بارئه . ففى السّياق يجىء القول « إليك » ولايستغنى عنه . كما أنّ السّياق لا يكتفى بالقول : « واتّبع ما يوحى إليك » إنّما يعين مصدر هذا الإيحاء . إنهّ من ربّ العزّة مالك الملك **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾**[1] على أن اللّفظة الّتى تستعمل فى موقف الخصوص هنا هى لفظة « الرّبّ » المعمقة لهذا الخصوص والّتى تستعمل حينما يكون الجوّ عابقاً بشذا الرّضا والامتنان **﴿واتبع ما يوحى إليك من ربّك﴾** بينما يستعمل بعد ذلك لفظ الجلالة « الله » فى موقف العموم . قال تعالى **﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾** .

٤ – يتحوّل التذييل من كونه موجّهاً إلى إمام المتّقين وخاتم الأنبياء المرسلين إلى أمته ﷺ **﴿إنّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾** وقد جاء فى سورة فاطر عن أصناف هذه الأمة ومواقفهم من أمره جلّ وعلا لهم ، بطاعة الله ورسوله ، واتباع ما أوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ قوله تعالى[2] : **﴿ثمّ أورثنا الكتاب الّذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله . ذلك هو الفضل الكبير﴾** إنّ الله تعالى ذا الجلال والإكرام ، الّذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السّماء ، خبيرٌ بما يفعله أفراد هذه الأمة المحمّديّة المأمورون باتّباع القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ . إنّهم فى مجموعهم ينقسمون ثلاثة أقسام . القسم الأوّل الأكبر ظالم لنفسه . والقسم الثّانى الكبير مقتصد ،

---

(١) سورة الأنعام ١٢٤ .

(٢) سورة فاطر ٣٢ . وانظر شرح ابن القيّم المستفيض لهذه الآية الكريمة فى كتابه طريق الهجرتين وباب السّعادتين ٢٣٥ – ٢٥٧ .

خلط عملاً صالحاً وآخر سيئا . والقسم الثّالث الصّغير سابقٌ بالخيرات بإذن الله تعالى . نسأل الله تعالى أن يهدينا جميعاً إلى سواء السَّبيل ، إنّه على كل شيء قدير . ويلاحظ أنّ سورة الواقعة مثلاً أشارت إلى الفئات الثّلاث . السابقين المقربين . وأصحاب اليمين أو الميمنة . وأصحاب الشمال أو المشأمة .

أما الآية الكريمة الثّالثة : ﴿ **وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾ فيمكن أن يقال بشأنها إنها تنبّه إلى أنّه ينبغى أن تصحّ العزائم على ولوج الطّريق المستقيم الّذى هدى الله تعالى إليه والسّير فيه . إنّ الآية الكريمة تبين أنّ زادنا فى الطّريق إليه جلّ وعلا هو التّوكّل عليه عزّ وجلّ وحده لا شريك له . وها هى ذى الآية الكريمة تخاطب المصطفى ﷺ بأنّ عليه أن يتوكّل على الله تعالى ، بأن يسند أمره إليه ويكله إلى تدبيره[1] إنّه عزّ وجلّ وحده لا شريك له هو الّذى يتوكّل عليه العباد ، لأنه جلّ وعلا وحده الكافى عن كلّ مستعاذ به ومتوكّل عليه سواه . والوكيل : الحافظ الموكول إليه كلّ أمر[2] قال تعالى خطاباً له ﷺ وأمته تبعٌ له فى ذلك : ﴿ **وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾ .

وليس بخاف أنّ هذه الآية الكريمة ، فى الوقت الّذى تكمل بها التّقوى ، لأنّ المتوكّل على الله تعالى لا يهمُّه شيء فى هذا الوجود سوى مرضاة الله تعالى ، مهما كلّفه ذلك من مشقات وتضحيات ، بما فى ذلك بذله روحه رخيصة فى سبيل الله تعالى، أقول فى الوقت الّذى تكمل بالآية الكريمة التّقوى الّتى تبينّ معناها فى درجة الإحسان كما مرّ بنا من قبل ، هى تحول بين المتوكلين على الله تعالى وبين أن يصدر منهم أدنى متعلّقات طاعة الكافرين والمنافقين ، لأنّ رغبة هؤلاء المتوكّلين الجادّة فى طاعة الله تعالى وطاعة رسوله الكريم ﷺ ، لا تجعل ثمّة منفذاً واحداً يمكن أن يتسلّل منه إلى قلوب المتوكّلين ونفوسهم أدنى استعداد لتجاوز معانى هذه الآية الكريمة من سورة الممتحنة ، الّتى تعيّن الحدود الّتى ينغى أن يقف عندها ولا يتخطّاها بحال من الأحوال المؤمنون المتقون المتوكّلون على الله تعالى . قال عزّ من قائل[3] : ﴿ **لاينهاكم الله عن الّذين لم يقاتلوكم فى الدّين ولم يخرجوكم من دياركم أن**

---

(١) انظر الكشّاف ٢/٥٢٨ .

(٢) انظر الكشّاف ٢/٥٢٨ .

(٣) سور الممتحنة ٨ .

تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحبّ المقسطين ﴾ وقد قال عزّ من قائل فى صفات هؤلاء المؤمنين المتّقين المتوكّلين[1] : ﴿ إنّما المؤمنون الّذين إذا ذُكر الله وجلتْ قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلّون الّذين يقيمون الصّلاة وممّا رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربّهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ وجاء فى بعض صفات نبى الرّحمة وحبّه عزّ وجلّ للمتوكّلين عليه حقّ التوكّل قوله تعالى[2] : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لا نفضُّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله إنّ الله يحبّ المتوكّلين ﴾ .

ونوّد أن نختم حديثنا عن آيات هذا القسم الثّلاث بالإشارة إلى طبيعة التذييل فى كلّ آية من الآيات الكريمات الثّلاث : ﴿ إنّ الله كان عليماً حكيماً ﴾ ﴿ إنّ الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ ﴿ وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ . ولعلنا لاحظنا أنّ الآية الكريمة الأولى تنفرد بكون تذييلها يجمع بين علم الله تعالى وحكمته . أمّا الآية الكريمة الثّانية فتشير إلى خبرته جلّ وعلا . والآية الكريمة الثّالثة تنصّ على كونه جلّ وعلا كفى الخلائق وكيلا بعلمه وحكمته وخبرته وكلّ جليل صفاته .

وإنّ اشتمال التّذييل الأوّل على صفتين اثنتين للذّات العلية ، يلفت انتباهنا بشأن الآية الكريمة إلى شيئين مهمّين .

أوّلهما هو كون الآية الكريمة يشتمل صدرها على معنيين اثنين أو فكرتين اثنتين . الأوّل ويتكوّن من شقّين هما نداؤه ﷺ وأمره بالتّقوى . والثّانى ويتكوّن كذلك من شقّين وهما نهيه ﷺ عن طاعة الكافرين وعن طاعة المنافقين . فثانى المعنيين فى الآية الكريمة يشتمل فى الحقيقة على نهيين اثنين . النّهى عن طاعة الكافرين والنّهى عن طاعة المنافقين . فإذا تدبرنا الصّفتين للذات العليّة فى التّذييل ﴿ إنّ الله كان عليماً حكيماً ﴾ استطعنا أن نتبين التّرابط الوثيق بين صفة العلم فى التّذييل ، وبين الأمر فى

---

(١) سورة الأنفال ٢ – ٤ .

(٢) سورة آل عمران ١٥٩ وجاء فى طريق الهجرتين وباب السّعادتين ص ٣٢٨ القول : « وأمّا الجمع بين التّقوى والتوكّل » ففى مثل قوله تعالى : « يا أيّها النبى اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إلى قوله تعالى : « وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلا . وقوله ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكّل على الله فهو حسبه » .

القسم الأوّل من الآية الكريمة ﴿ **يا أيُّها النّبىّ اتّق الله** ﴾ لأنّ العادة فى الأمر أن يرتبط به عزيمة وتوكّل وعمل . ومن متعلّقات كلّ ذلك العلم . كما استطعنا أن نتبين التّرابط الوثيق كذلك بين صفة الحكمة وبين النّهى فى الآية الكريمة : ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين** ﴾ لأنّ العادة فى النّهى أن يرتبط به الإحجام الّذى يحتاج إلى ضابط . وليس ببعيد عن أذهاننا العلاقة بين الحكمة (بكسر الحاء) من ناحية ، وهى أمرٌ معنوى يرتبط به التّأنّى والتّريّث والتّلبث . وبين الحكمة (بفتح الحاء والكاف) بمعنى لجام الفرس الّذى به يُخَفّف حدّه ويكفّ غَرْبه ويكبح جماحه . وهكذا يتبين التّرابط الوثيق بين أجزاء الآية الكريمة والعلاقة المتينة والنظام الدّقيق بين التذّييل وما سبقه من معان فى الآية الكريمة . قال تعالى : ﴿ **يا أيّها النّبىّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إنّ الله كان عليماً حكيماً** ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة التّالية ، تبيّنّا كذلك التّرابط الوثيق بين صدرها وعجزها . ففى الصّدر نحن بصدد أمر واحد بعينه هو اتّباعه ﷺ ما أوحى الله تعالى به إليه من قرآن كريم وسنّة مطهّرة . ويراد بذلك الأمر فى الحقيقة أمّته ﷺ كما أفهم العجز أو التّذييل . وفى العجز أو التّذييل نحن بصدد إحدى صفات البارى جلّ وعلا . إنّه الخبير بكلّ ما يعمل الخلائق من امتثال لهذا الأمر السّماوى أو عدم امتثال ، من طاعة أو عصيان ، من إذعان أو كفران . قال تعالى : ﴿ **واتّبع ما يوحى إليك من ربّك إنّ الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة الأخيرة فى القسم تبيّنّا بشأنها ما تبيّنّا بشأن ما سبقها من آيتين كريمتين سابقتين . إننـا بشأن الصّدر بصدد أمر بالتّوكّل عليه جلّ وعلا . وفى العجز نحن بصدد صفة واحدة للذات العليّة تتمشّى مع الصّدر مضموناً وشكلا ، مخبراً ومظهراً ، أعنى التجانس لفظا ومعنى بين التّوكّل والوكيل . قال تعالى : ﴿ **وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾ .

وبما أنّ محور الآيات الكريمات الثّلاث هو التّقوى التى أمر بها جلّ وعلا وبأهمّ مقوّماتها . ونهى عن أهمّ ما يتنافى معها . وبما أنّ محلّ التّقوى القلب ، فإنا فى تحولنا إلى آيتى القسم الثّانى نتبين أنّ هذا القلب هو محورَ الحديث . يقول أبو حيّان

بشأن الآية الكريمة التّالية الّتى يبدأ بها القسم الثانى[1] : قيل وجه نظم الآية بما قبلها أنّه تعالى لمّا أمر بالتّقوى كان من حقّها ألاّ يكون فى القلب تقوى غير الله ، فإنّ المرء ليس له قلبان يتّقى بأحدهما الله وبالآخر غيره . وهو لا يتقى غيره إلاّ بصرف القلب عن جهة الله إلى غيره . ولا يليق ذلك بمن يتّقى الله حقّ تقاته » ونتحوّل إلى القسم الثانى :

(١) البحر المحيط ٢١١/٧ .

بالنظر الى الآيتين الكريمتين من زاوية العلاقة المعنوية بينهما نستطيع أن نتبين أنّ محورهما الرئيسى يدور حول قضية التّبنىّ وعادة العرب غير الصحيحة فى الجاهلية بتنزيل المتبنَّى منزلة الابن الحقيقى . ويلاحظ بشأن الآية الكريمة الأولى أنها وطّأت لهذا المحور الذى يدور حول عادة للعرب غير الصّحيحة بتوطئتين لقضيتين أو عادتين للعرب تحملان كذلك جرثومة الخطأ ذاته. انهم يذهبون الى جواز وجود شخص ذى قلبين اثنين . والقرآن الكريم ينفى ذلك . والى اعتبار الظهار طلاقا بسبب زعمهم أن الظهار نزّل الزّوجة المظاهر منها منزلة الأم . كما يلاحظ بشأن الآية الكريمة الثانية أنّها ركّزت على المحور الرئيسى هذا وهو ظاهرة التّبنىّ .

فاذا عدنا الى الآية الكريمة الأولى ونظرنا اليها من زاوية القضايا التى تعالج ، والموضوعات التي لها تعرض ، تبينا أنها تتحدّث عن تلك الأمور الثلاثة غير الصحيحة التى تورّط فيها العرب قبل الاسلام. وثمّة فريق من العلماء يرى أن هذه الآية الكريمة نزلت في رجل من قريش كان يقال له ذو القلبين . وأنه كان يزعم أن له قلبين، كل منهما بعقل وافر . فانزل الله هذه الآية رداً عليه . وهكذا روى العوفى عن ابن عباس . وقاله مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة واختاره ابن جرير[1]

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٦/٣ وانظر تفسير الطبرى ٧٤/٢١ .